المحاضرة (6) التجديد الشعري في المغرب العربي

وصل تأثير المدرسة الرومانسية إلى المغرب العربي نتيجة الظروف السياسية والاجتماعية المشتركة وتوقا إلى إحياء الذات في النص الشعري بعد الشعور باضمحلالها وتلاشيها في الواقع

التجديد في شعر الشابي:

عد الشابي من الشعراء الذين عرفوا بحضورهم الشعري في المشرق والمغرب، إذ انتمى عضويا إلى جماعة أبولو ونشر في مجلتها غير أن ذلك لم يفقده الإحساس بالمسؤولية في التعبير عن الهوية الوطنية.

موضوعات شعر الشابي:

كتب الشاعر في موضوعات عدة لعل أهمها ما يلي:

موضوع الوطن:

انتقد الشابي التخلف الاجتماعي غيرة على وطنه محرضا على المقاومة والتحدي لإصلاح الوضع السائد:

يقول الشاعر:

أين يا شعب قلبك الخفاق الحساس أين الطموح والأحلام؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفتان أين الخيال والأوهام؟
أين يا شعب فنك الساحر الخلاق أين الرسوم والأنغام؟
إن يم الحياة يـــــــــدوي حواليك فأين المغامر المقداد؟

وهذه الأبيات تدل على رغبة الشاعر في التطوير وهي عبارة عن متوالية استفهامية تترجم قلق الذات وحيرتها وأملها في استرجاع مكانة الشعب وعزته

كما عالج الشاعر أسباب القهر فتحدث عن المستعمر الظالم المستبد في قوله:

ألا أيها الظالم المـــــــــستبد حبيب الفناء عدو الحياة
سخرت بأنياب شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه
وسرت تشوه سحر الـــــوجود وتبذر شوك الأسى في رباه

ويبدو أن الشاعر كان يرجو استجابة فورية تدفع عنه الذل والمهانة وعندما لم يجد نداءه آذانا صاغية أصابه اليأس فقال:

إني ذاهب إلى الغاب يا شعبي لأقضي الحياة وحدي بـــــيأس
إني ذاهب إلى الـــــــغاب علي في صميم الغابات أدفن بؤسي
ثم أنساك ما استطعت فما أنـــ ت بأهل لخمرتي ولـــــــــكأسي

يمكننا أن نلحظ في المقطع الآنف اهتماما بالبنية التركيبية، إذ لجأ الشاعر إلى التشاكل اللفظي مما حقق جمالية بصرية وأخرى إيقاعية.

وكتب الشابي في الألم :حتى إن شدة الألم تتحول إلى نوع من التمزق، يغذي أدب الشاعر بروح وجودي يصطبغ تعبيره عنه بالمرارة المأساوية:

وأكلنا التـــــراب حـــتى مللـــنا وشربنا الدمـــــوع حتى رويـــنا
ونثرنا الأحـــــلام والحـــــب والآ لم واليأس والأسى حيث شينا
ثم ماذا؟ هذا أنا صرت في الدنـ يا بعيدا عن لهـــوها وغنـــاها
في ظلام الـــــــــفناء أدفن أيـــا مي ولا أستطيـــع حتى بـكاها
وزهور الحياة تهوي بصـــمت محزن مضـــجر على قدمـــيا

ويبدو أن شدة الألم تتحول إلى نوع من التمزق الذي يعد حالة ازدواج

موضوع تأملاته في الطبيعة:
استعمل الشاعر حشدا كبيرا من المفردات المستمدة من الطبيعة وذلك يدل على عمق تأمله للحياة الطبيعية :

ظمئت إلى النور فوق الغصون ظمئت إلى الظل تحت الشجر
ظمئت إلى النبع بين المروج يغني ويرقـــــص فوق الزهر
ظمئت إلى الكون أين الوجود إني أرى الـــــــعالم المنتظر

وقد عاش الشابي شاعرا وجدانيا بامتياز يصنفه الدارسون في قائمة شعراء المدرسة الرومانسية إذ قال الشاعر في الحب:

الحب جدول خمر من تذوقه خاض الجحيم ولم يشف من الحرق
الحب غاية آمال الحياة فـما خوفي إذا ضمني قبر؟ وما فـــــرقي

فالحب في شعر الشابي طاقة محركة أثرت العطاء الفني على حساب الكيان

التجديد في الشكل:
كتب الشابي على منوال الموشحات مثلما فعل أصحاب جماعة الديوان وأبولو ومثالا على هذا نورد قوله:

رفرفت في دجـــية الليل الحـــزين زمرة الأحلام
فوق سرب من غمامات الشجون ملـؤها الآلام

كنت إذ ذاك على ثوب السكون أنثر الأحزان
والهوى يســكن أصداء المنون في فؤاد فان

هذا المقطع مأخوذ من نص "في الظلام" الذي بني بشكل هندسي جمالي يقوم على الجمع بين خمسة مجاميع شعرية يحوي كل مجموع على سطرين شعريين وكل سطر قسم إلى قسمين.

التجديد في شعر رمضان حمود:
يجتمع رمضان حمود مع الشابي في كونه شاعرا ناقدا وهذه الخاصية تميز بها شعراء مدرسة الديوان وبعض شعراء جماعة أبولو أيضا. وقد جدد رمضان حمود في الشكل أكثر مما فعل في المضمون.

نظرية الشاعر في الشعر:
يقول رمضان حمود: الشعر كامن في أعماق نفس الإنسان كمون النار في الحجر تظهر أثاره للخارج بالتحاكك والممارسة، وقد يشعر العامي الجاهل الأمي، ويكهرب النفوس بشيطانيته ويترك أثرا مبينا في قلوب السامعين

وهذا يعني أن الشعر يقاس بمدى أثره في المتلقي لذا يقول الشاعر أيضا:

فقلت لهم لما تباهوا بقولهم ألا فاعلموا أن الشعر هو الشعور
وليس بتنسيق ولا تزوير عارف فما الشعر ألا ما يحن له الصدر
فهذا خرير الماء شعر مرتل وهذا صفير الريح ينطحه الحجر

موضوعات شعره:
الطبيعة:
نهج رمضان حمود نهج الرومانسيين في التعبير عن علاقة الذات بالطبيعة فرسم صورة مشرقة تجتمع خلالها جملة من الصور الحسية واللونية:

الكون أشرق بعد طـــــول ظـــــلامه تيقظ الوســـنان من أحـــلامه

وهفا النسيم على الغصـــــون مغازلا فتفتق الـــــنوار في أكـــمامه
والروض أزهـــــر والورود تـــبسمت والجو جاد بســـحبه وغمـــامه
والشمس تنشر في السماء نضارها والريح يزفر، من عظيم هيامه
والماء يجري في الجداول عـــــازفا والطير يرقص من هوى أنغامه
والسرد يشمخ للســـــماء بأنـــــفه والظل مـــــمتد على أقدامـــــــه
وتتضح صور التشخيص التي تبث طاقة حركية تفعل علاقة التواصل بين الذات وموضوعها.

الألم:

يترجم الشاعر أزمة الدواخل وآهاتها الناتجة عن الإحساس بالسأم والشعور بالوحدة والاغتراب:
سئمت الحياة وعفت الشباب ولم أر في العيش ما يستطاب
هو الدهر لا ينقـضي نحسه وفيه السعادة مثل الســـــــــراب
فكيف تطيـــــب حياة لمـــــن فؤاده طول المـــدى في التهاب
تراه غريبا إذا ما اشـــــتكى وحظه تحت أديـــــم التـــــراب
يتحدث الشاعر عن بؤس الحياة التي فقدت لذتها وأضحت كتاب عذاب لا نهاية له.

النزعة الوطنية:

توطدت علاقة الشاعر بزعماء الحركات الوطنية الإصلاحية فكتب مستنكرا الجمود الفكري:
لن ينال العز شعب كالجماد فاقد الإحساس خال من الشعور
لن ينال المجد شعب بالرقاد يترك اللب ويـــعنى بالقشـــــور
إنما المجد قرين بالجـــــهاد ووئام وثـــــبات في الظـــــــهور
تبدو في هذه الأبيات النزعة التشاؤمية الموحية بالألم والحسرة نتيجة عدم الرضا بالذل الهوان

الحب:

لم يسقط موضوع الحب من الخطاب الشعري الذي أنتجه الشاعر لكونه شاعر الأحاسيس المتدفقة:
لا تلمني في حـــبها وهـــــواها لست أختار ما حـــييت سواها
هي عيني ومهجتي وضـــميري إن روحي وما لديـــها فـــداها
إن عمـــــري ضـــــحية لأراهـــــا كوكـــــبا ساطعا ببرج عـــلاها
فهنائي هو كـــــــل برضـــــاها وشـــــقائي مـــــسلم بشـــقاها
إن قلبي في عشقها لا يبالي تنطوي الأرض أم يخر سماها
إن العشق رحـــــمة وعـــذابا وعذاب العشـــــق شوب جناها
أتمـــــنى أن تـــــراها أحلى وصالا يكـــــون فيها رضـــاها
يظهر التجديد في هذا النص من خلال تبني وحدة موضوعية وعضوية مع استخدام الرمز فالقصيدة تتحدث عن الحرية.

التجديد في الشكل:

الحقيقة ونحن نتحدث عن التجديد في الشكل فأنه لا يمكن بأية حال إغفال محاولة رمضان حمود سنة 1928 في نصه " يا قلبي" الذي تميزت بتعدد الأوزان (الشعر النثري، الكامل، الخفيف) وتغير القوافي غير أن وفاته حالت دون تأثيره في الشعر الجزائري
يقول الشاعر:
أنت يا قلبي فريد في الألم والأحزان
ونصيبك من الدنيا الخيبة والحرمان
أنت يا قلبي تشكو هموما كبارا وغير كبار
أنت يا قلبي مكلوم ودمك الطاهر يعبث به الدهر الجبار

ارفع صوتك للسماء مرة بعد مرة
وقل اللهم إن الحياة مرة
أعني اللهم على اجتراعها
وامددني بقوة فإني غير قادر على احتمالها